

الباب السادس

عصر الفوضى

الفصل الأول

محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمهدي :

كان المنصور بن أبي عامر يستعين بالبربر ، فاتخذهم جندا له وظلوا أعوانا لأبنائه من بعده ، وعندما ولى الحجابة عبد الرحمن المأمون انتقضوا عليه لسوء سيرته . وكان بنو أمية يكرهون البربر كرها شديدا لأنهم كانوا سبب تغلب المنصور وابنيه وهم الذين أعانوه على اغتصاب سلطة الخليفة الأموي هشام الثاني . وعم السخط على البربر حتى شمل أهل قرطبة ، لما كانوا يلاقونه من استبداد البربر وسوء معاملتهم . فلما تولى المهدي أظهر الحق عليهم ، وطردهم من القصر وأمعن في اضطهادهم وأوغر صدر العامة عليهم

وكانت لأموار قد سارت سيرا حسنا في مستهل خلافة المهدي . فدحل الكل في طاعته ، ولكن الناس لم يلبثوا أن عرفوا أن زوال بني عامر لم يحسن من حال أحد ولم يقض على المظالم ، فاستمر تدميرهم . وكان خلق المهدي نفسه موضع شكواهم إذ كان قاسيا ، سفاحا ، معدوم الكفاية ، فاسقا . فبدأ بنزع سلاح سبعة آلاف من العامة مما أسخطهم عليه ، ثم نقي من قرطبة موالى بن عامر من الجند الصقالبة مما دفعهم إلى الانضمام إلى أعدائه . وأغضب الفقهاء بعكوفه على اللهو والقصف وعدم خروجه من القصر . فاشتهر بين الناس بالسكير . وزاد في حماقته فطر د البربر

من الجيش، وأمر من بقي منهم ألا يركبوا الخيل ولا يتقلدوا السلاح وأباح دورهم لنهب الرعاع فأصبحوا في عداد خصومه ومبغضيه . وأصبح شغله الشاغل الخوف من أن يذكّر الناس الخليفة هشاما الثاني الذي كان لا يزال حيا فيعيدوه إلى العرش

إعلان وفاة هشام الثاني الموبد :

هدى المهدي تفكيره إلى إعلان وفاة هشام ، فأحضر جثة مسيحي يشبهه في أبريل عام ١٠٠٩ م ، ونقلها إلى القصر حيث عرضها على الكثيرين ممن يعرفون هشاما . ورشا من بالقصر حتى أقرّوا بصحة الوفاة ، ثم دعا العلماء والوزراء والقواد لتشييع جنازة الخليفة ، واحتفلت قرطبة كلها بدفن هشام المزعوم في مقابر المسلمين باجلال وأبهة يليقان بمقام خلافة ، ونقل المهدي هشاما الحقيقي إلى قصر أحد وزرائه وسجنه فيه

خروج البربر ومبايعة هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر :

لما اطمأن المهدي من ناحية هشام الثاني لم يمد يده يكثر بالأخطار ، فأمر بسجن الأمير سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، وأذاع أنه سيقتل قواد البربر ، فثاروا عليه وتولى قيادتهم الأمير هشام بن الأمير سليمان المسجون وانضم اليهم غوغاء قرطبة وسار الجميع الى قصر المهدي ، فلما علم المهدي بثورتهم قابل زعيمهم الأمير هشام بن سليمان ، وتحدث اليه على انفراد وأطلق سراح أبيه سليمان بن عبد الرحمن الناصر . ولكن هشاما أصر على طلب الخلافة لنفسه ، فطاولة المهدي وأخذ يحاوره كسبا للوقت . وتصادف أن الجنود البربر من أنصار الأمير هشام بن سليمان استبطأوه

فاخذوا قتلا للوقت ينهبون حوانيت التجار في حي السروجية . فهب أهل قرطبة إلى أسلحتهم فتقلدوها ، لا دفاعا عن المهدي ، ولكن دفاعا عن أموالهم . واستمر النزاع يوما وليلة . وفي صباح الجمعة ٣ يونيو عام ١٠٠٩ م هزم البربر وفروا بلا نظام إلى خارج قرطبة ، وطاردتهم أهل قرطبة وانصرف فريق من الغوغاء إلى نهب منازل البربر وسبي نسائهم ، وأسروا هشاما وابنه الأمير سليمان بن عبد الرحمن الناصر وأخاه أبا بكر وقتلوه .

ولما جمع فلول البربر شتاتهم أقسموا ليفتنقمن من أعدائهم ولحق بهم سليمان ابن الحكم بن عبد الرحمن الناصر ابن عم هشام المقتول ، فبايعوه بالخلافة ولقبوه بالمستعين بالله .

النزاع بين المهدي والمستعين واستعانة كل منهما بالمسيحيين :

سار البربر إلى مدينة سالم ، وطلبوا إلى واضح حاكم الحدود أن ينضم إليهم للسكنة رفض ، فقاتلوه وهزموه ، وأعوزهم القوت فإرسلوا إلى سانكو أمير قشتالة يعرضون عليه التحالف ، ويطلبون منه المعونة . فوجد رسولهم عنده رسلا من قبل المهدي قد سبقوه ، يعرضون على سانكو الخيل والبغال والمال والحلل والجواهر ويعقدونه بتسليم مدن وحصون إليه إذا انضم إلى المهدي . وكان الموقف على عكس ذلك تماما منذ خمسة أشهر . وكان هذا بدأ الانقلاب في تاريخ الاسلام بالاندلس ومستهل المأسى المفجعة . إذا أصبح مصيرها فيه بيد الأمراء المسيحيين ، والمسلمون يستعدونهم على أخوانهم وبني جلدتهم . وبعد أن كان المسلمون هم الآمرون الناهون ، يملون إرادتهم على جميع الأمراء المسيحيين ، إذا بأمر مسيحي واحد

هو أمير قشتالة ، يصبح معقد الرجاء ، ومناط الآمال ، والمقرر لمصير الاسلام في
الأندلس

ولما كان سانكول على بينة من أمر المهدي وضعف مركزه ، فانه وعد البربر
بالمساعدة إن هم تعهدوا بتسليم الحصون التي عرضها عليه رسل المهدي . ولما قبلوا
ذلك ، صرف سانكو رسل المهدي وأرسل إلى معسكر البربر طعاما (وفيرا ١٠٠٠
ثور و ٥٠٠٠ رأس من الغنم و ١٠٠٠ مركبة من الاطعمة)

فلما انتعشوا وأطعموا من جوع زحفوا ومعهم سانكول على مدينة سالم ، ودعوا
واضحا مرة أخرى إلى الانضمام اليهم ، ولما أبى تركوه وشأنه ، وأسرعوا بالسير
إلى قرطبة . فتبعهم واضح ، ولكنهم هزموه وردوه على أعقابهم . ولما قاربوا مدينة
قرطبة خرج المهدي للقائهم وعسكر في السهل الواقع شرقي المدينة . فدارت عليه
الدائرة في ٥ نوفمبر عام ١٠٠٩ م — ٤٠٠ هـ وهزم اتباع المهدي من أهل قرطبة
وفي فرارهم غرق منهم كثير في نهر الوادي الكبير . ويقول ابن حيان المؤرخ ان
عدد من مات في ذلك اليوم عشرة آلاف . أما المهدي فهرب إلى قصره ولما حاصر
البربر القصر أخرج المهدي الخليفة البائس هشاما الثاني من محبسه وتنازل له عن
الخلافة ، ونادي بنفسه وزيرا له ، وأرسل القاضي ابن ذكوان إلى البربر يخبرهم
بذلك فسخروا منه وقالو :

« بالامس مات هشام وسرت أنت وأميرك في جنازته . وصليتم عليه ،
فكيف يكون اليوم حيا ؟ واذا كان ما تقوله حقا فنحن نشكر الله على حياة
هشام ، ولكن لا حاجة لنا به فسلطان أميرنا وخليفتنا »

وأخذت أهل قرطبة رهبة جند سليمان فاقبلوا يسلمون عليه بالخلافة . وفر

المهدى إلى طليطلة ، وعاد سانكو وجنده القشتاليون مثقلين بالأسلاب والغنائم إلى بلادهم . وظل المسكين هشام الثانى المؤيد سجيناً فى يد سليمان كما كان فى يد المهدى ، بعد أرغمه سليمان على التنازل له عن الخلافة مرة أخرى

وكان المهدى محمد بن هشام قد وصل إذ ذاك إلى طليطلة حيث رحب به أهلها . وتبعه سليمان المستعين بالله الذى وصل إلى مدينة سالم ، فانضم اليه كثير من جندها الصقلية وأخلى واضح المدينة ، فدخلها سليمان بلا مقاومة . وخابر واضح أميرى قطلونية المسيحيين ، ووعدهما بتسليم بعض المدن ان أمدها بجند من عندهما . ولما وصله المدد المطلوب سار مع حلفائه حتى انضم إلى جيش المهدى أما سليمان فعاد أدراجه إلى قرطبة ، وأراد البربر أن يظهروا الهزيمة ليستدرجوا جند قطلونية ثم يكروا عليهم بعد ذلك ، ولكن سليمان لم يدرك غرض البربر ، فظنهم قد هزموا حقاً ، وفر من الميدان

على ان فرسان البربر لم يتأثروا بفراره ، وظلوا يستبسلون فى قتالهم ، وقتلوا ٦٠ من رؤساء الجند المسيحيين . وأخيراً انسحبوا إلى الزهراء ، وعاد المهدى إلى قرطبة . ولما دخلها وقعت المدينة المسكينة فريسة فى أيدي الجند القطلونيين المسيحيين ، الذين نهبوا بعد ما نهبها قبلهم بستة أشهر جنود البربر وقشتالة . وتنازع الفريقان المدينة مراراً

وارتكب المسيحيون القطلونيون أثناء ذلك فظائع مريعة . وأخيراً رفض القطلونيون البقاء فى خدمة المهدى لما لحقهم من الخسائر . فتركوا جيش المهدى راجعين إلى بلادهم . ومن الغريب أن أهل قرطبة حزنوا لرجوعهم إلى بلادهم وأخذوا يعزون بعضهم بعضاً كمن فقد عزيزاً عليه لأنهم كانوا يتوقعون من

الهرب ، عند انقراضهم في الميدان ، فظاعة تفوق كل ما ذهب اليه القطلونيون
المسيحيون

إعادة هشام الثاني مرة أخرى إلى العرش

أخيرا فكر زعماء الجيش في خلع الخليفين ، واعادة هشام الثاني المؤيد إلى
العرش ودبروا لذلك مؤامرة انتهت بقتل المهدي ، وتولية هشام الثاني ، واقامة
واضح حاجب له . وكانت مدة ولاية المهدي منذ قام إلى أن قتل عشرة أشهر

الفصل الثاني

استفحال الفوضى

لم يكن من الصعب على واضح أن يستغل ضعف هشام الثاني ، فيسيطر عليه كما سيطر عليه المنصور والمظفر والمأمون من قبل . لكن الجو لم يكن قد قدصفا له بعد ، إذ كان هناك سليمان المستعين بالله وجنوده البربر خارج قرطبة وكان واضح قد اتخذ الصقالة جندا له ، فاغضب هذا فريقاً من أهل قرطبة . وهؤلاء تأمروا مع سليمان على أن يهاجم البربر قرطبة في يوم معين فينضمون اليهم وكشف واضح المؤامرة ، وقتل زعماءها وأفسد التدبير . ثم صد هجمات سليمان وجنده البربر وردهم مهزومين

أمير قطالونيا يساوم الفريقين المتنازعين

لما رأى سليمان المستعين بالله ضعف موقفه ، سعى في الحصول على معونة سانكو أمير قطالونية ، وحليفه السابق . فأرسل سانكو خطاباً إلى واضح يهدده فيه بالانضمام إلى سليمان إن لم ينزل له واضح عن بلاد وحصون سماها . وخطورة الأمر لم يقبل واضح أن يأخذ المسؤولية على عاتقه . فدعا مجلساً من عليه القوم ووجوه الدولة ، وعرض عليهم مطالب سانكو ، وفوض اليهم الرأي فيما يفعلون . فاضطروا إلى إجابة مطالبه خشية أن ينضم إلى البربر ، وتفاوضوا عن كل الاعتبارات الوطنية . وفي سبتمبر عام ١٠١٠ م عقد واضح مع سانكو معاهدة سلمه بمقتضاها مائتي حصن وخمس بلاد . ولما رأى الأمراء المسيحيون

الآخرون أن حصون المسلمين لقمة سائغة يسهل الاستحواذ عليها بقليل من التهديد والوعيد ، حذوا حذوه وفي كل مرة كانت تجاب مطالب المسيحيين . فاصبحت الدولة الاسلامية التي تميزها الحروب الداخلية ، وتستنزف ثروتها الفتن والاضطرابات ، غنيمة سهلة لاعدائها . ومما يشك فيه أن أهل قرطبة كانوا إذ ذاك مغتبطين بزوال بنى عامر كما اغتبطوا يوم أن ثاروا على سانكول ، غير حاسبين للعواقب حسابا . فاصبحوا مرغمين على أن يطأطئوا الرؤوس أمام أعدائهم المسيحيين وقضى عليهم أن يتخبطوا في الفتن خبط العشواء

حصار الزهراء ونحريتها

واستمر البربر باسم أميرهم سليمان المستعين ، يعيشون في الأرض فسادا . ثم حاصروا قرطبة وتحولوا عنها إلى الزهراء ، فحاصروها ثلاثة أيام ، ثم دخلوها في ٤ نوفمبر سنة ١٠١٠ م . وتلى سقوط الزهراء في أيدي البربر مذبحه فظيعة قتل فيها جميع من بالزهراء من رجال ونساء وأطفال . ولم يترك البربر بها أحدا حتى من احتموا بالمسجد . وبعد نهب الزهراء ، أعمل البربر فيها الزيران ، فاحترقت مدينة من أجل مدن أوربا وأصبحت أكواما من رماد . واستمر البربر ينحربون ضواحي قرطبة . ففر أهلها إلى داخل أسوار المدينة ، مما أحدث بها مجاعة ذهب ضحيتها الفقراء من السكان ، وأصبحت الحكومة في عوز شديد ، حتى أن واضحا اضطروا إلى بيع البقية الباقية من مكتبة الحكم ، للحصول على مال يسير — وحدث مثل ذلك في مدن أخرى كان يحاصرها البربر ، فاصبحت الأندلس في حالة تستوجب الرثاء .

تتابع الفتن والحوادث في قرطبة

ازداد الحال سوءا في عام ١٠١١م مما لقي اليأس في قلب واضح ، فأرسل إلى سليمان المستعين بالله يطلب الصلح . ولما علم زعماء الصقالبة بمساعيه قتلوه وحلوا رأسه على رمح ، وطافوا به في شوارع قرطبة سنة ١٠١١م فحكم المدينة من بعده ابن أبي وضاء . وقام علماء الدين يبنون النخوة والبسالة في قلوب أهل قرطبة ، فقاتلوا أعداءهم البربر حتى صدوهم عن مدينتهم وانتصروا عليهم . وقاتل أهل قرطبة بقيادة ابن أبي وضاء قتال المستميت حتى اضطروا البربر إلى فك الحصار عن المدينة ، كما طردوهم من حول بلنسية . ولكن البربر عادوا إلى الظهور امام قرطبة مرة أخرى ، وأخيرا انتصروا على المدافعين عنها ، ودخلوها في ١٩ ابريل عام ١٠١٢ ، وسفكوا دم أهلها فجرى أتهارا ونهبوا المنازل وخربوا كل عامر ، وأشعلوا النيران في القصور ، ولم يتركوا فقيها ولا شيخا ولا وليدا إلا قتلوه . وكان في عدة من قتلوا الشيخ البوقور سعيد بن المنذر امام المسجد الجامع ومروان بن حضور وابن الفردى قاضى أشبيلية . كما أحرقوا قصر ابن حزم أشهر علماء عصره ، وسبوا نسائه . وفي الغداة ذهب سليمان المستعين بالله إلى قصر هشام المؤيد ، ودعاه للحضور بين يديه . فلما حضر أنبه على قبوله الخلافة بعد التنازل عنها . فاعتذر هشام بأنه مغلوب على أمره . وقبل سليمان عذره ثم قتله سرا بعد ذلك وجلس سليمان على العرش وبايعه الناس في شوال سنة ٤٠٣ هـ وتلقب بالظافر مضافا إلى المستعين . وكان الظافر هذا أديبا بليغا وشاعرا مجيدا اشتهر برقة الغزل . فمن رقيق شعره :

عجبا يهاب الليث حد سناني وأهاب لحظ فوائر الأجفان

لا تعذلوا مكا تذلل في الهوى ذل الهوى عز وملك ثمان
ما ضر انى عبدهن صباية وبنو الزمان وهن من عبدانى
إن لم أطمع فيهن سلطان الهوى كلفا بهن فلست من مروان
وإذا الكريم أحب أمن أليفه خطب القلى وحوادث السلوان
وإذا تجارى فى الهوى أهل الهوى عاش الهوى فى غبطة وأمان
تتأج تلك الفوضى :

كان من الطبيعى أن تحدث تلك الفوضى النتائج المترتبة عليها . ومن المحتم
أنها كانت لا بد أن تؤدى «أولا» إلى الوهن والتفتت فى ملك الاسلام
« وثانيا » إلى إتاحة الفرصة للأمراء المسيحيين لتحقيق أحلامهم القديمة
فانفصلت عن قرطبة ولايات كثيرة ، واسنقل كل أمير أوحا كم بما تحت
يده . فتفككت أواصر الوحدة وتمزق الملك الفسيح الى دويلات صغيرة .
لكل منها أمير يصور له الغرور انه ملك كبير ، يصح أن يكون للمؤمنين أميرا
ويحسده أمراء دويلته فيتواثبون على عرشه ويصارعهم ويصارعونه . فاذ استتب
الأمراء منهم طمع فى ملك جيرانه ، والكل يتزلف للأمراء المسيحيين ، يستنصرهم
ويستعديهم على بنى ملته . فقام ابن عباد فى أشبيلية ، وابن ذى النون فى طليطلة
وخيران العامرى فى بلنسية وابن الافطس ببطليوس ، وابن هود بسرقسطة
ومجاهد العامرى بدانية ، وهؤلاء كلهم عرب . ومن البربر البرزالي فى قرمونة ،
وباديس فى غرناطة . أما الخليفة الأموي سليمان المستعين بالله فاقصرت خلافته
على قرطبة وباغة وثلاث مدن أخرى

وانتهز الأمراء المسيحيون الفرصة لزحزحة العرب جنوبا ونمت فى صدورهم
أمنية طردهم الى أفريقيا ، واعدتهم من حيث أتوا

استمرار الفوضى في قرطبة :

أراد البربر أن يستمتعوا بمآتهبوا ، فرغبوا في السلام . كما تآقت نفس الخليفة سليمان المستعين بالله أيضا الى التمتع والاستمتاع ، فانصرف الى اللهو وكتابة الاشعار والتبحر في الادب . ولكن الناس كرهوه الى حد الموت . لانه كان في نظرهم مغتصبا للعرش ، سفاحا ، وصل الى ما وصل اليه على اشلاء قومه وأطراف بلادهم الممزقة ، وبفضل المسيحيين والبربر وترك المستعين جنوده يعيشون فسادا في الأرض ، ولما طلب من أمراء الاقاليم الدخول في طاعته هزأوا به وسخروا منه ، ودعوا في مساجدهم لهشام الثاني المؤيد وهم لا يعلمون أنه قد مات غدرا بيد سليمان

الفصل الثالث

سقوط المستعين وقيام دولة بني حمود :

كان هنالك من موالي بني عامر بقرطبة زعيم صقلبي اسمه خيران . فلما اقتحم المستعين بالله قرطبة للمرة الثانية كان خيران يقاتل في صفوف هشام الثاني المؤيد ، ولما غلب الصقالبة على أمرهم ارتدوا منهزمين ، وتفرقوا في البلاد ، فاستولى خيران على المرية وأغار على البربر في الجهات المجاورة لها ، فقوى أمره ودعى للخليفة هشام الثاني المؤيد .

وكان من زعماء البربر الذين قادوا جند سليمان المستعين بالله عند ما اقتحم قرطبة أميران من الإدارة يرجع نسبهما إلى الحسن بن علي بن أبي طالب : وهما علي ابن حمود الذي ولاه المستعين سبته وطنجه ، وأخوه القاسم حاكم الجزيرة الخضراء ولا يفصل أمارتي الأخوين إلا مجاز طارق . وكان علي بن حمود أصغر الأخوين وأكثرهما طموحا . فتأقت نفسه إلى الاستيلاء على قرطبة وتطلع إلى الخلافة وشجعه على تحقيق أمنيته ما كانت فيه الخلافة الأموية الهزيلة من ارتباك وضعف . فتحالف مع خيران العامري أمر المرية على اقتحام قرطبة وإعادة هشام الثاني المؤيد إلى عرش الخلافة إن كان حيا ، والمناداة بنفسه خليفة إن كان هشام قد توفي . ولما تم التحالف عبر على البحر من العدو الأفريقية إلى الأندلس ، واستولى على مالقة وانضم إليه حاكمها عامر بن فتوح . ثم سار الجميع إلى قرطبة . ولما كان على بحكم طول إقامة أسرته بالمغرب معدودا من قادة البربر ، فقد

انضم اليه فريق كبير من بربر قرطبة لشجاعته ونبله ، كما انضم اليه الامير زاوى حاكم غرناطة . وكما أرسل سليمان المستعين جيشا من جنده البربر لمقاتلة على بن حمود وحليفه خيران ، تظاهر الجيش بالهزيمة وعاد من غير قتال . وأخيرا أشار عليه أحد أمراء جنده بأن يقود الجيش بنفسه واذا أراد الفوز . فلما عمل بهذا الرأي قبض عليه جندو سلموه إلى على بن حمود الذى دخل قرطبة من غير مقاومة فى يوم الاحد ١٦ يولييه عام ١٠١٦ م — ٤٠٧ هـ

وكان أول ما عنى به خيران البحث عن هشام الثانى المؤيد . ولما لم يعثر له على أرسال عنه سليمان فى حضرة الوزراء والفقهاء ، فقال انه مات . وأمن على قوله أحد خدام هشام . ولكن هشاما لم يكن قد مات على ما يقال . وظلت حقيقة أمره سرا غامضا ، ولغزا مستغلقا . ويقال أن هشاما المؤيد بالله فر من سجنه أيام سليمان ، وظل مختبئا فى قرطبة مدة ، ثم اشتغل كعامل عادى ثم فر الى آسيا بعيدا عن متاعب الملك وهمومه

وهكذا كانت نهايته مأساة محزنة . ولما لم يثبت أن هشاما لا يزال على قيد الحياة بايع الناس عليا بن حمود حسب ما اتفق عليه الخليفان من قبل . وأمر على بقتل سليمان وأخيه وأبيه

خلافة على بن حمود وقيام النزاع بين الخليفين :

وحكم على البلاد حكما عادلا فقمع وحشية البربر ومنع السلب والنهب ، ووحى الشعب من الظلم ، وكان يستمع للشعراء ويحسن صلتهم .

وأحسن خيران الولاء للخليفة أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن قلب له ظهر الحن ، لما فشل فى الوصول الى ما وصل اليه المنصور محمد بن أبى عامر فى

عهد هشام الثاني المؤيد . وأخذ يحبك المؤامرات مع أمراء الأسرة الأموية وعمل جاهدا لاعادة الخلافة الى أمير من بينهم . ووقع اختياره على الأمير عبد الرحمن الرابع بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر . فلقبه بالمرتضى ودعا العرب الى الالتفاف حوله واحياء عهد خلافتهم واسقاط خلافة البربر . فاقطعت الفتنة النائمة ، وأثار العنصرية من جديد ، ولجى دعوته المندرا الهاشمي حاكم سرقسطة الذي زحف جنوبا ومعه حليفه ريموند المسيحي أمير برشلونة وانضم الى خيران كما انضم اليه كثير من أهل الاندلس . ولما تكشفت لعلی بن حمود حقيقة أمر من نصب نفسه لحمايتهم ورد الظلم عنهم ، ألقى بنفسه في أحضان البربر وأطلق أيديهم في معاملة أهل قرطبة كما يشتهون . وفرض ضرائب باهظة على الأهالي وصادر أوقاف المساجد بمقتضى فتوى من أحد الفقهاء المتزلفين واسمه ابن الجيار وعاد حكم الارهاب الى المدينة العسة مرة أخرى . ونشر علی بن حمود عيونه في المدينة ، حتى أصبح نصف الناس جواسيس على النصف الآخر . وفي نوفمبر عام ١٠١٧ م خرج للملاقة أعدائه ، ولكن هطول الأمطار اضطره الى أن يعود أدراجه

وفاة علی بن حموده وولاية ابنه القاسم:

في صبيحة يوم ١٧ ابريل عام ١٠١٨ م تفقده جنده فوحده قتيلا في حمامه . قتله ثلاثة من موالى الأمويين ممن كانوا في خدمته . وفرح أهل قرطبة لقتله ولكن البربر أقاموا مكانه ابنه القاسم ولقبوه بالمأمون . أما خيران وحليفه الجديد المندرا الهاشمي فقد بايعا بالخلافة عبد الرحمن الرابع المرتضى وزحفا على غرناطة لمقاتله زاولي . ولكنهما كانا بيفيان من نصرته واحياء الخلافة الأموية ، أن يكون المرتضى شبيحا يديران باسمه الأمور . فلما رفض أن ينزل لهما عن سلطانه

انضما إلى زاوي وانشق الحلفاء على أنفسهم ، فهزم المرتضى وفر إلى إحدى القرى القريبة حيث قتل . وكانت خيانة خيران سببا في القضاء على الصقالبة ، إذ ضعفت شكونهم وأصبح البربر أصحاب الحول والطول في البلاد

وحكم القاسم حكما عادلا ، فأمن الخائف . ونشر السلام والهدوء ، وخفف الضرائب وتصلح مع خيران ، فجمع حوله القلوب . وظل كذلك حتى شك في ولاء البربر فاستخدم جيوشا من العبيد الزوج ليحلوا محل البربر مما أثار ثائرتهم

وانتهز هذه الفرصة ابن أخيه يحيى ليعمل على إسقاط عمه ، فضم إليه البربر وعبر البحر من العدو الأفريقية إلى الأندلس ، واستولى على مالقة ، حيث انضم إليه أخوه باديس الذي كان حاكما عليها من قبل عمه القاسم

ولما اقترب يحيى من قرطبة فرمى القاسم إلى أشبيلية في ١٢ أغسطس عام ١٠٢٢ م ودخل يحيى المدينة وما لبث أن انفض من حوله الزوج والبربر ففر إلى مالقة وعاد القاسم إلى قرطبة في فبراير عام ١٠٢٣ م

ولم يمض كبير وقت على ذلك حتى ثارت قرطبة مرة أخرى وطردت القاسم فهرب إلى أشبيلية ، ولكن أهلها أغلقوا أبواب مدينتهم دونه ، فسار إلى مالقة وهناك قبض عليه يحيى وقتله

الفصل الرابع

محاولة إعادة الخلافة الأموية بقرطبة وظهور الميول الجمهورية :

أصبح على أهل قرطبة أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم . فمقدوا لذلك مؤتمرا في نوفمبر عام ١٠٢٣م واقترح الوزراء إعادة الخلافة الأموية ، ورشحوا لذلك ثلاثة أمراء . ولكن أحدهم وهو الأمير عبد الرحمن أخو الخليفة المهدي (محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر) استطاع أن يحيط نفسه يوم الانتخاب بنفر من ذوى الحناجر القوية الذين ملأوا الجوهناقا باسمه . فاضطر الوزراء أن يبايعوه كما يبايعه جميع من حضر الجلسة بالمسجد الجامع ، فلقب نفسه بالمستظهر بالله واتخذ ابن حزم وزيرا له

عبد الرحمن الخامس المستظهر بالله :

اشتهر عبد الرحمن الخامس المستظهر بالله بغزله الرقيق كما اشتهر وزيره ابن حزم بالعلم والفضل ، فقد كان أكبر علماء عصره وأقدر كتاب الأندلس ، كما كان من أعظم شعرائها . ولكن عرش الأدب كان أسهل استبقاء من عرش الخلافة . وبخاصة في بيئة مضطربة . فلم تمض بضعة أسابيع حتى قامت ثورة عمادها الفوغاء والعاطلون بزعماء محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر ، وانضم اليهم وجوه أهل قرطبة وحرس الخليفة . وانتهت الثورة بالقبض على المستظهر وقتله وتولية محمد بن عبد الرحمن وتلقيبه بالمستكفي بالله وهو أبو ولادة بنت المستكفي

الشهيرة . وقتل الوزراء جميعا ما عدا ابن حزم ، الذي انصرف بعد ذلك للبحث العلمى والتبحر فى الآداب

خلافة محمد بن عبدالرحمن المستكفى ووزارة أحمد بن خالد النساج:

اتخذ المستكفى أحمد بن خالد النساج صديقه الحميم حاجبا . فأغضب باختياره هذا وجوه الدولة وكبرائها وكان حكمه قصير الأمد . وتخبط فى كثير من الأخطاء وارتكب كثيرا من المظالم ، منها القبض على ابن حرم وابن عمه عبد الوهاب ابن حزم . فهرب من ظلمه بعض الكبراء ومنهم أبو عامر بن شهيد . ولجأوا إلى يحيى بن على بن حمود ، وطلبوا منه أن يضع حدا للفوضى الضاربة أطنابها فى قرطبة واستجاب لهم يحيى

ولم يكذب يذاع فى قرطبة نبأ ما يجهزه يحيى من جنود للزحف عليها حتى ثار أهلها على النساج وزير المستكفى وقتلوه ، واضطر المستكفى إلى الفرار من قرطبة متخفيا فى زى امرأة مقنعة ، ولجأ إلى قرية على حدود قرطبة حيث دس له أحد أتباعه السم

التراوح بين إعادة خلافة بنى حمود أو اختيار خليفة أموى ثم الانتهاء إلى الجمهورية:

ظلت قرطبة ستة أشهر بلا خليفة وكان يحكمها مجلس من الكبراء . ولكن هذا النظام لم يكن مقبولا لدى أهلها الذين ألفوا الحكم الملكى طويلا . فاستقر الرأى أخيرا على عدم اختيار أمير من بنى أمية لأن التجربة قد اسفرت مرارا وتكرارا عن الفشل ، ووجوب اختيار أمير لديه جيش يكبح جماح الفوضى ، ويمنع الشغب ويقضى على السلب والنهب وسفك الدماء ، الذى مل منه الجميع . واتفق الناس

أخيرا على مرض الخلافة على يحيى بن علي بن حمود أمير ملقه فقبلها ولكنه لم
يكثرث بها ، بل ظل مقبلا حيث هو . وأرسل من قبله جنودا لاقرار النظام
في قرطبة

وأظهرت الحوادث بعد نظر يحيى . إذ مل أهل قرطبة حكم البربر ، فتآمروا
مع زعيمى الصقالبة خيران العامرى أمير المريه ومجاهد العامري أمير دانيه على
طردهم . وتم لهم ذلك بمعونة الجند الصقالبة المقيمين في قرطبة . إذ فتحوا أبوابها
للقوات التى أرسلها خيران ومجاهد . وباغت الجميع البربر وطردهم من المدينة .
وحاول مجلس كبراء المدينة إعادة الحكم الأوى . فاختار الوزير أبو الحزم
ابن جهور الأمير هشام أخو الخليفة عبد الرحمن الرابع المرتضى بالله وتمت البيعة
لهشام الثالث ولقب بالمعتمد بالله ولكنه كان إذ ذاك بعيدا عن قرطبة . فاستدعى
إليها . وحال أمراء البلاد الواقعة على طريق قرطبة دون وصوله . وأخيرا وصل
إليها عام ١٠٢٩

وسرعان ما خيب هشام الثالث المعتمد بالله ظنون أهل قرطبة فيه . إذ لم
يكن على شىء من المقدرة ، كان ضعيف الإرادة ، بليد الذهن ، عاكفا على
اللهو . فترك مقاليد الأمور كلها في يد وزيره الحكم بن سعيد . وأساء وزيره إلى
الفقهاء وإلى الشعب بما فرضه من الضرائب ثم نافسه ابن جهور ، وعزم على
اسقاطه واسقاط الخليفة معه . فاتفق مع مجلس الكبراء على خلع هشام الثالث
وامتناع الأمير أميه إثارة الجنود الذين كانت أعطيتهم قد تأخرت . وفى تلك
الثورة قتل الوزير الحكم بن سعيد عام ١٠٣١ م ونهب الجند قصر الخلافة ، ودخلوا
مقاصير النساء فجردوها من كل ما فيها . واعتصم هشام الثالث ببرج عال ،
واستغاث بأهل قرطبة فلم يفتنه أحد ، وجلس أميه على عرش الخلافة مستعجلا

الحوادث ، كأن قد استتب له كل شيء . ولم يدر بخلده ما كان يرتب إذ ذاك
في بيت ابن جهور

الفاء الخلافة وإعلان الجمهورية :

اجتمع مجلس الكبراء بدعوة من ابن جهور، وأخذوا يتشاورون فيما يضع حدا
لتلك الأحداث الجسام . وأخيرا استقر رأيهم على الفاء الخلافة وإعلان انتهاءها
ولما اتفقوا على ذلك ركبوا ، وحولهم حراسهم ومواليهم وخدمهم والكل مسلحون
إلى قصر الخلافة ، ونادوا بالكف عن النهب والسلب ، فرضخ الجند لأمرهم
رهبة من تلك القوى المسلحة التي كانت تصحبهم أو اجلالا لمقامهم ، أو لأنه لم
يعد هناك ما ينهب ويسلب أو لتلك الأسباب مجتمعة . ثم نادى الكبراء
هشاما الثالث بالنزول من البرج ووعدوه بالآن ، أن تنازل عن الخلافة . ولما نزل لهم
عنها حبسه هو ونساؤه في قبومظلم بالمسجد الجامع . وفي المساء دعا الوزير ابن جهور
أهل قرطبة الى المسجد الجامع للتشاور في أمر هشام الثالث ، فانفق الحضور على
اعتقاله في حصن من الحصون بلا امهال ، وكلفوا بعض شيوخهم بنقل هذا القرار
إلى هشام . فلما ذهبوا إلى القبولابلاغه قرار المؤتمر الشعبي شهده وجالسا القرفصاء
على الأرض ، وحوله نساؤه يبكين وهن في ملابس مهلهلة ، وقد احتضنته ابنته
الصغيرة لتفشد الدفء من البرد الشديد ، وقد كادت الصغيرة المسكينة أن تهلك
من الجوع . فكان أول همه قبل سماع رسالتهم أن يتضرع اليهم باحضار لقمة
تبلغ بها ابنته الجائعة

وبعد سجن هشام الثالث أعلن مجلس الكبراء انتهاء الخلافة ، وأن المجلس
هو الحاكم الشرعي للمدينة . واتجه ابن جهور إلى قصر الخلافة حيث قبض على

أميه ، وأمر بنفيه إلى خارج حدود قرطبة حيث اختفى ولم يعد أحد يسمع عنه شيئاً .
أما هشام الثالث فقد فر من سجنه ، ولجأ إلى الأمير سليمان بن هود أمير
لأردنه . وهناك أقام إلى أن توفي عام ١٠٣٦ م — ٤٢٨ هـ و بعد خمسة أعوام كان
فيها نسياً منسياً لا يحفل به أحد ، وتلك كانت خاتمة الخلافة الأموية بالأندلس

حالة قرطبة تحت الحكم الجمهورى :

آل الحكم فى قرطبة إلى مجلس شيوخها الذى عهد فى إدارة المدينة إلى الوزير
أبى الحزم جمهور بن محمد بن جمهور ، يساعده عبد العزيز بن حسن ومحمد بن عباس
فصلح حالها تحت إدارته ، إذ اتبع سياسة حازمة حكيمة ، فطرد البربر واستبدل
بهم حرساً وطنياً ، وكان لا يقطع أمراً إلا بمشورة المجلس ، ولم ينتقل إلى قصر
الخلافة بل ظل فى منزله الخاص . وكان نزيهاً فى تصرفاته المالية ، فلم يبق خزانة
الدولة فى بيته بل وضها تحت إشراف نفر من أطر الناس كفا ، وعقد معاهدات
صداقة وحسن جوار مع الدويلات المحيطة بقرطبة ، فهدأت الفتن وعاد الأمن إلى
نصابه ، وتقدمت الصناعة وازدهرت التجارة ، وانخفضت أسعار الأقوات ،
واتسعت قرطبة واستوطن بها كثير من وجوه من حولها من المدن ، وازدهر
عمرانها ، وتجدد ما تخرب من مبانيها ولكن لم تعد إليها منزلتها السياسية التى
فقدتها بفقد الخلافة

الفصل الخامس

حالة أشبيلية

انتقلت المنزلة السياسية التي كانت لقرطبة الى أشبيلية إذ كانت المدينتان مرتبطتان في مصيرهما السياسي ارتباطا دام سنينا طويلة تحت الحكم الأموي ، ثم حكم بني حمود ، فلما حدثت ثورة ١٠٢٣ م في قرطبة حنت اشبيلية حذوها وذلك ان القاسم بن حمود لما طرد من قرطبة فر منها إلى اشبيلية حيث كان له فيها جيش من البربر بقيادة محمد بن زيري ، وكان بها ولدا حاكمين عليها وكان اهل اشبيلية قد قبلوه ملكا عليم خفا من بطشه وقسوة جنده ، ولكن المثل الذي ضربته قرطبة في امكان التخلص من البربر وطردهم شجع اشبيلية على محاكاته ، واستطاع قاضي اشبيلية أبو القاسم محمد بن عباد ان يستميل اليه القائد محمد بن زيري بان مناه بالحصول على عرش المدينة ثم عقد اتفاقا مع امير قرمونة ، وإذ ذاك تسلم أهل أشبيلية وانضمت اليهم حامية المدينة بقيادة ابن زيري وحاصروا جميع قصر ولدى القاسم . وفي ذلك الوقت وصل القاسم إلى أبواب أشبيلية لاجئا اليها من قرطبة فوجد أبوابها موصدة في وجهه ، وأخيرا اتفق مع أهل أشبيلية على اخلائها وسحب حاميته منها نظير اطلاقهم ولديه والسماح له بنقل أمواله ومتاعه ، وهكذا أفلح ابن عباد في تحرير أشبيلية من نير البربر وانقاذها من ظلمهم ، واكتسب تقديرا أهل المدينة فطلبوا اليه أن ينولي حكمها فقبل ذلك ، واشترط أن يعاونه في الحكم بعض ساداتها وكبرائها . وكان القاضي أبو القاسم محمد بن اسماعيل ابن عباد حازما بعيد النظر ، فاختار لمساعدته ابن الهوزاني وابن حجاج ومحمد ابن ياريم وأبا بكر الزبيدي . وهكذا قامت جمهورية ثانية في اشبيلية بجوار جمهورية

قرطبة . وكان أول هم تلك الجمهورية الحصول على جيش يصد عنها غارات بني حمود وجندهم البربر الممثلين منها غيظا ، ولما كان ابن عباد موفور الثراء فقد استطاع أن يجتذب اليه خلقا كثيرا من العرب والبربر وغيرهم ، واشترى كثيرا من الصقالبة وأخذ يدرهمهم على فنون الحرب والقتال ، وغزا حصنين كانا للمسيحيين شمال أشبيلية واستولى عليهما ، وأصبح عنده خمسمائة من خيرة الفرسان . وفي عام ١٠٢٧ م حاصر أشبيلية الخليفة يحيى بن حمود وبرايرة قرمونة بقيادة محمد بن عبد الله ، ولضعف أشبيلية رضيت بالخضوع للخليفة وقبلت سيادته الاسمية عليها وقدم ابن عباد ابنه رهينة على أن لا يدخل البربر المدينة ، فقبل يحيى ذلك واكتفى بدخولها في طاعته ، وبعد ذلك بوقت قصير انفرد ابن عباد بالسلطة في المدينة ، وعزل وزراءه ومد ممتلكاته إلى مدينة باجة فنازعه في امتلاكها عبد الله بن الألفطس أمير بطليوس وابنه محمد الملقب بالمظفر ، وحاصر اسماعيل بن القاضي أبو القاسم محمد بن عباد مدينة باجة ومعه جيش من حلفائه بربر قرمونة واجتاح القرى التي حولها ، وهزم محمد بن الألفطس وقتل معظم جيشه وأسر ، وشجع هذا النصر ابن عباد فغزا إقليم بطليوس وقرطبة ، وبعد وقت قصير عقدت هدنة بين المتحاربين واطلق ابن عباد سراح محمد بن الألفطس ١٠٣٠ م وبعد ذلك بأربع سنوات انتقم ابن الألفطس من ابن عباد شر انتقام إذ سمح لجيش ابن عباد بقيادة ابنه اسماعيل باجتياز أمانة بطليوس في طريقه إلى ليون ليغزوها ، وبعد دخوله في منعطفات الطرق الجبلية وأدغالها هاجمه من الخلف فوقعه بين نارين ، وأصبح المسيحيون من أمامه والبربر من ورائه . ففقد معظم جيشه وفر اسماعيل مع حفنة من رجاله ولاقى الأهوال حتى وصل إلى مدينة لشبونة أول حدود ملك أبيه

الفصل السادس

العصبة الاندلسية

كان القاضي محمد بن اسماعيل بن عباد يدفع الجزية للخليفة يحيى بن علي بن حمود وبمحكم دولته فيما عدا ذلك مستقلا ، ولكن يحيى كان يجمع حوله أمراء البربر حتى أصبح زعيم العصبة الافريقية في الجنوب الشرقى للاندلس ، واستولى على قرمونة واتخذها مقرا له ، ومنها أصبح يهدد قرطبة واشبيلية معا . فادرك أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد عظم الخطر وحراجه الموقف ورأى بشاقب فكره أنه لا يدفع هذا الخطر إلا تكوين عصبة عربية أوربية عمادها العرب والصقالبة ، فوضع أساس اتحاد عربي صقلبي يجمع تحت أعداء البربر الاقريقين تحت رياسته . ولم تخف عليه وفرة المصاعب التي كانت تعترض تحقيق فكرته إذ كان عليه ان يتغلب على شكوك الأمراء العرب والقواد الصقالبة ومجلس شيوخ قرطبة ، وان يخشى المساس بكرامتهم إذا حاول ان ينصب نفسه رئيساً عليهم ، ولكنه لم يتهيب ولم يتردد وساعدته الحوادث بمجرياتهما على تحقيق بغيته

وذلك أن الناس كانوا لا يزالون إذ ذاك يعتقدون أن الخليفة المنكود الحظ هشام الثاني (المؤيد) ما زال على قيد الحياة ، وأنه فر من قصر الخلافة مدة حكم سليمان المستعين بالله حيث انتقل إلى مكة وسرق بعض العبيد أمواله ، فماش من صناعة الفخار ، ثم سار إلى بيت المقدس حيث احترف صناعة الحصر

ومنها عاد إلى الأندلس . سمع محمد بن اسماعيل بن عباد ذلك ، فانتهر الفرصة السانحة واستدعى إلى أشبيلية رجلا يشبه هشاما تمام الشبه واسمه خلف ، وكان يشتغل بصناعة الحصر وعرضه على نساء هشام ولما اعترفن بأنه هو الخليفة نفسه (وهذا الاعتراف لا يصح اتخاذه حجة) أعلن عودة الخليفة هشام الثانى إلى عرشه ، وأنه أصبح رئيس وزرائه ودعا الناس جميعا إلى حمل السلاح ، وأخبر مجلس الشيوخ فى قرطبة وأمراء العرب والصقالبة بذلك ، ودعاهم إلى حمل السلاح أيضا فى سبيل نصرته . ونجحت الخطة نجاحا محكما إذ اعترف به فى الحال محمد ابن عبد الله بن الأفطس أمير بطليوس ، وعبد العزيز أمير بلنسية ، ومجاهد أمير دنيه وجزر البليار ، وأمير طرطوشة ، واضطر ابن جهور الذى لم تجز عليه هذه الخدعة الى الاعتراف بهذا الخليفة المزيف ، وأخذ البيعة له لما رآه من تمسك الشعب بقرطبة لعودة خلافة هشام ، ولما كان يعلمه من الخطر الداهم الذى يتهدد قرطبة من ازدياد سطوة البربر . واذ ذاك كان يحيى يحرق الأرم لنجاح مسمى ابن عباد ، فصب جام سخطه عليه بأن غزا أشبيلية ، وأخذ يخرب ما حولها ولسكنه كان محاطا بشرذمة من الخونة الذين أخبروا قاضى أشبيلية سرا بأن سيدهم يسهل أسره اذا بوغت فجأة ، لأنه قل أن يصحو من سكره فخرج اسماعيل بن الأمير أبى القاسم محمد وهاجم قرمونة بعد أن أعد كمينا ليحيى ، ولما سمع يحيى صراخ جند أشبيلية ترك مجلس الشراب واندفع بنزق وراءهم ومعه فريق من خيرة فرسانه فوقع فى السكمين وقتل . وقتل معظم أتباعه ، وفر الباقيون ودخل محمد بن عبد الله أمير قرمونة السابق قصر يحيى وسبى نساءه فى نوفمبر ١٠٣٥ م ، واقتسم هو وأولاده أمواله وقوبل نبأ قتل يحيى فى قرطبة وأشبيلية بفرح شديد يفوق حد الوصف ، اذ كان فى هذه الهزيمة القضاء على دولة بنى حمود

وزوال خطرهم . نعم ان خلافة يحيى بن حمود انتقلت من بعده الى اخيه ادريس أمير ملقه ، ولكن ابن عمه محمد امير الجزيرة الخضراء نادى بنفسه خليفة ايضا ونازعه السلطة . ولكن هذا لم يجد ابا القاسم نفعا في ادراك بغيته وتحقيق مطامعه فلما اراد اجلاس الخليفة هشام المزعوم في قصر الخلافة بقرطبة واقامة نفسه ثابا عنه فلما منه ان الفرصة مواتية لاتمام مهزله تصدى له ابن جهور ، واظهر لاهل قرطبة ان الخليفة المزعوم انما هو شخص دعى مزيف وحذف اسم هشام الثانى من الخطبة ، ولما وصل القاضى الى ابواب قرطبة وجدها موصدة في وجهه فاضطر الى الرجوع بخفى خنين لقله من كان معه من الجنود . والى تحويل أنظاره إلى زهير أمير المريه ، وكان زهير قد رقص الاعتراف بخلافة هشام الثانى ، وانضم إلى بنى حمود معترفا بخلافة ادريس ، وحالف حبوس أمير غرناطة لما رأى الخطر يتهده من ناحية أشبيلية . ولما التقت جنود القاضى أبى القاسم بجنود المريه وغرناطة دارت الدائرة على أبى القاسم فعاد إلى أشبيلية مرة أخرى يجر أذيال الفشل ، وأصبح همه أن يخلص نفسه من هجوم جيش غرناطة والمريه على بلاده ، ولكن تقلبات الحوادث أنجته من عدوه من حيث لا يحتسب ، إذ وقع الحليفان في بعضهما ، فتنفست اشبيلية الصعداء ، وتفككت عرى الوحدة البربرية وخلت أمانة المريه ، ومنحت الفرصة لعبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور أمير بلنسية فاسترد المريه وضمها الى ملكه

وسبب الوقعة بين الحليفين ان كان لكل منهما وزير يمقت الآخر أشد المقت . فبعد وفاة حبوس تولى ابنه باديس واتخذ اليهودى صمويل واسمه هاليفى وزيرا له ، وكان نادرة زمانه فى الشعر والفصاحة والذكاء والدهاء وبعد النظر والتجرد من الصلف والغرور ، اما وزير زهير فكان ابن عباس الذى اشتهر بوفرة

غناه (وقدرت ثروته بما يعادل مليوناً ونصف مليون من الجنيهات) وبخله وبراعته في نظم الشعر كما عرف بكبريائه وغروره ، وكان عربى الأصل جميل الصورة رفيع الحسب يرجع نسبه إلى الانصار ، وكان يكره البربر ويحتقر اليهود ، فكانت كراهية كل من الوزيرين للآخر سبباً في انقلاب الحليفين إلى عدوين . وتصادف ان زار زهير حليفه باديس في قرطبة ودارت بينهما مخابرات بشأن تجديد التحالف ولكن صلف ابن عباس كان سبباً في اغضاب امراء البربر فانتهت المفاوضات بالفشل ، وقفل زهير راجعاً ، وفي عودته كان البربر قد احتلوا مسالك الجبال وسدوها عليه ، وخانه حرسه السود فانصموا إلى البربر الذين هاجموا وشردوا رجاله في الفجاج ، فمنهم من قتل ومنهم من سقط من شاطئ أثناء هربه فدقت عنقه وتناثرت اشلائه ، وكان من بين هؤلاء الأمير زهير نفسه اما الوزير ابن عباس فوقع في يد باديس اسيراً فامر بسجنه في الحمراء منقلاباً بالاصفاد ، ولم يقبل منه فدية بل استقر رأيه على قتله فطعنه بحربة في صدره وتبعه أخوه وحاجبه ، ولم يمض أبو العباس إلا بعد أن تلقى سبعة عشرة طعنة أسلم بعدها الروح في سبتمبر ١٠٣٨ م وكان قتل باديس لزهير صدمة كبرى للعصبة العربية إذ استراح بال القاضي أبو القاسم وأصبح قادراً على توجيه جهوده ضد عصبة البربر ، مبتدئاً بامارة قرمونة كما دبر مؤامرة في غرناطة ضد أميرها باديس برعاية مغامر عربى اسمه أبو الفتوح أصله أديب متضلّع في علم الفلسفة والفلك والشعر ، وفد على الأندلس يطلب صلة أمرائها ، فآثر بباديس وحرص ابن عمه يزيّر على الثورة ، ولكن باديس كشف التدمير وعجل بالقبض على المتآمرين ، وتمكن زعمائهم من الهرب لاجئين إلى أبي القاسم الذي كان المحرك الأكبر لهم فيما فعلوا . وظن القاضي أن الوقت قد حان لمهاجمة قرمونة ، فأرسل جيشاً بقيادة ابنه اسماعيل للاستيلاء عليها فانصرف

في عدة مواقع ، وحاصر مدينة قرمونة ، فاضطر أميرها محمد إلى الاستنجاد بادريس خليفة مالقة وباديس أمير غرناطة ، فلبيا نداءه أما ادريس فارسل جيشا بقيادة وزيره ابن بقانه ، وأما باديس فقاد جيشه بنفسه ، ولكن جيش اسماعيل كان يفوق جيشهما في كثرة العدد . فاضطرا إلى الفرار عائدين كلا إلى بلده ، وتبعهما اسماعيل بجيشه ولكن جنده استهانوا بالأعداء المنهزمين ، وتفرقوا في الطريق فهاجمهم البربر هجوما عنيفا أوقع الهزيمة في صفوفهم ، وقتل اسماعيل وعاد ابن بقانه إلى مالقة وباديس إلى غرناطة ، وهناك وفد عليه أبو الفتوح مستغفرا لذنبيه لما علم أن باديس قد أمر بسجن زوجته وأولاده ، فكانت عودته هي القاضية عليه إذا أمر باديس بسجنه ثم قتله بيده في أكتوبر ١٠٣٩ م

الفصل السابع

مملكة البربر في مالقة أو خلافة بني حمود :

كان ملوك هذه الدولة ضعافا قنعوا بالسيادة على مالقة وطنجة وسبتة ، واعترف بخلافتهم اعترافا واهيا باديس أمير غرناطة ، وبينما كان باديس لا يثق إلا بالبربر أو بوزير يهودي كصمويل بخلص كل الاخلاص لمصلحة الدولة كان بلاط ادريس مملوًا بالصقالبة والبربر ومفعما بالدسائس والمنازعات ، وهي بعينها أسباب سقوط ملك بني أمية ، وتجلي الانقسام بعد وفاة ادريس الاول إذ تنازع السلطة الوزير ابن بقرانه المغربي ونجاء الصقلي ، وأراد ابن بقرانه أن يولى الخلافة يحيى ابن ادريس ولكن نجاء نادى بخلافة الحسن بن يحيى ابن عم الأمير يحيى ، وعبر البحر إلى مالقة باسطول كبير ، فلما رأى ابن بقرانه شدة بأس خصمه أدخل الميدان وفر هاربا ومعه أميره يحيى فاحتل نجاء القصبه ، ووعد ابن بقرانه بالصفح ان هو استسلم ولكنه قتله بعد استسلامه ، ثم قتل الأمير يحيى بن ادريس بعد ذلك ، ومع أن القتل كان على غير رغبة الأمير الحسن إلا أن زوجة الحسن وهي اخت الأمير يحيى المقتول دست السم لزوجها انتقاما لأخيها فمات ، وبعد ان قتل نجاء أبناء للحسن وسجن الأمير ادريس اخي الحسن نادى بنفسه خليفة على مالقة ، وصبر عليه البربر اول امرهم فبايعوه ، وبيتوا النية على ان ينكبوه في اول فرصة لقتله اثنين من أبناء رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يكن نجاء على علم بما يدور في خلدهم ، فتجهز لاختصاص الجزيرة الخضراء وكان أميرها محمد من بني حمود ،

وأنس من البربر اعراضا عن القتال وفتورا في التزال فقفل بحيشه راجعا إلى مالقة لينظر في أمره ، وفي طريقة إليها انقض عليه جنده وقتلوه في فبراير ١٠٤٣ م

وبينما كان البربر يصيحون فرحا لقتله ، والصقالبية يحملون متاعهم هاربين خشية أن ينالهم ما نال زعيمهم أسرع اثنان من البربر إلى مالقة وحملوا إلى أهلها النبأ السار فأخرج أهلها الأمير إدريس من سجنه ونادوا به خليفة عليهم . ولم يكن إدريس الثاني كفاء لتولى الخلافة رغم حسن طويته وجوده ، ومما يدل على تسلط الخرافات على عقول البربر أنهم كانوا يزعمون أن أمراء بني حمود مقدسون لنسبتهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه لا يجوز النظر إليهم أو التحديق فيهم ، فكانوا لا يخاطبون الناس إلا من وراء ستار ، ولكن إدريس الثاني كان لا يتمسك بهذه التقاليد تساهلا منه فقد حكى أن شاعره أبازيد عبدالرحمن أنشده قصيدة منها

وكان الشمس لما أشرقت فانشئت عنها عيون الناظرين
وجه إدريس بن يحيى بن علي بن حمود أمير المؤمنين
خلقوا من ماء عدل وتقوا وجميع الناس من ماء وطنين
أنظروا نقتبس من نوركم إنه من نور رب العالمين

فأمر إدريس برفع الستر ، وكان إدريس الثاني ضعيفا خائرا العزيمة يدل على ذلك أنه كان لا يقوى على رفض طلب باديس ، أو أي أمير آخر إذا ما طمع في حط من حصون بلاده أو في قتل رجل من رجاله ، ويقال أن باديس غضب مرة على وزير من وزراء إدريس الثاني فطلب تسليمه إليه فلم يستطع إدريس أن يرفض هذا الطلب

وأبدى للوزير أسفه وألمه ، لما قد يلقاه من سوء المصير ، ثم أمره بالذهاب إلى باديس فذهب إليه وقتل ، فمستط البربر لضعفه المتناهي ، وثلثوا عليه بقيادة أحد عماله ، وأخرجوا الأمير محمد ابن عمه ونادوا به خليفة ، وأراد أهل مالقة أن يحموا أميرهم وخليفتهم ادريس الثاني ، وأن يقوموا في وجه البربر ، ولكنه رفض أن يسلمهم ليدافعوا عنه ، ولم يقبل أن يسفكوا قطرة دم في سبيله ، وهكذا تم لمحمد دخول مالقة حيث تولى الخلافة وذهب الأمير ادريس الثاني إلى السجن

وكان الخليفة الجديد على عكس سلفه تماما إذ كان مندفعاً في شجاعته وجراته ، لا يتسامح في مخالفة النظام ، شديد الوطأة في حكمه

فلما تبين للبربر والزوج من جنده حقيقة أخلاقه ندموا على ما كان منهم وتآمروا على اطلاق سراح ادريس الثاني ، وردة إلى عرش الخلافة ، وفي هذه المرة لم يتردد ادريس في قبول ايقاد نيران الفتنة والحرب الاهلية ، في سبيل الحصول على حريته والعودة إلى عرشه

ولكن محمدا قاوم الثوار ، حتى أجبرهم على التسليم ، وقبل أن يسلموا كانوا قد تمكنوا من تهريب ادريس إلى افريقية ، حيث ظلت خلافته قائمة في طنجة وسبتة وذكر اسمه في الخطبة ثم خشي حاكم طنجة ونحاهم تبينة أن يزرع الخليفة السلطة من أيديهما فأرسله إلى أمبانيا حيث لجأ إلى حاكم مدينة روندا وكان من البربر ، وفي ذلك الوقت أعلن أمير الجزيرة الخضراء نفسه لخليفة ، وكان اسمه محمدا أيضاً فأصبح بالاندلس أربعة خلفاء في وقت واحد هم هشام الثاني المزعوم في اشبيلية ، ومحمد في مالقة ،

ومحمد في الجزيرة الخضراء ، وادريس الثاني في روندا وكان أمير الجزيرة الخضراء .
أول من أدخل الميدان إذ تخلى عنه أنصاره ففر إلى المغرب ومات مجللاً بالعار
عام ١٠٤٨ م ، ومات من بعده محمد أمير مالقة عام ١٠٥٤ م ، وعاد إلى تولي
الخلافة فيها ادريس الثاني ، وظل يحكمها حتى سنة ١٠٥٥ م ، حين توفي وعندئذ
أصبح باديس زعيم العصبة البربرية غير منازع فضم إليه إقليم مالقة وقضى على
بنى حمود ونفاهم إلى المغرب .

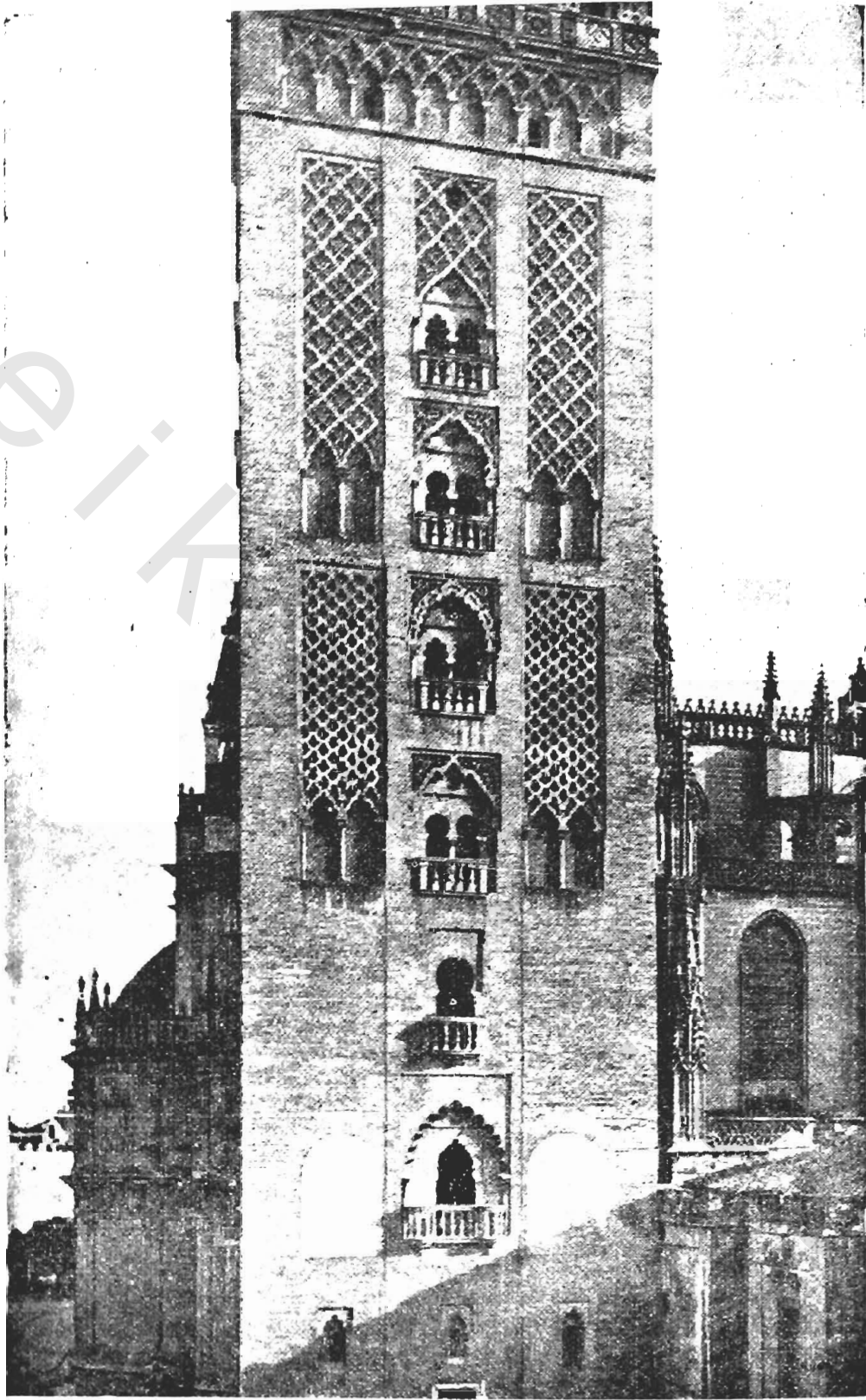
الفضيل الثامن

عود إلى مملكة أشبيلية

المعتضد ابن أبي القاسم :

لما توفي القاضي أبو القاسم في يناير ١٠٤٢ م ، قام بالأمر من بعده ابنه عباد ولقب بالمعتضد ، واستمر يدعى أنه حاجب الخليفة هشام الثاني ، وأصبح المعتضد زعيماً للعصبة العربية الأندلسية ، وكفاً للوقوف أمام باديس زعيم البربر يبرزه في خصاله خيرها وشرها ، لا يؤمن جانبه ، يميل إلى الانتقام غادراً سفاحاً شريراً ظالماً قاسياً ، يدمن الخمر وينغمس في الشهوات ، جمع في قصره ٨٠٠ من النساء فكان يشبه خصمه كل الشبه في نواح متعددة ، ويختلف عنه في سعة اطلاعه ووزارة علمه وثقافته ورقة طباعه

وكان المعتضد نصير العلم والأدب يحزل صلة الشعراء ويكثر من تشييد المباني ويتشبه بخلفاء بغداد ، وكان حبه للانتقام متغلغلاً في أعماق نفسه ، فلا ينفو ولا يفسى ، ولا يكتفى بقتل أعدائه بل يتشبه بالخليفة المهدي الأموي في اتخاذ جاجهم أوعية للزهر في باحات قصره ، وعلى كل جمجمة اسم صاحبها ، ومع هذا كان يعد نفسه ربحانة الملوك وقدوة الأمراء في العدل والحلم والكرم ، وينشد ذلك عن نفسه في أشعاره وقصائده



منارة المسجد الجامع بأشبيلية

obeykandi.com

حروب:

اشعل المعتضد نيران حروب طويلة مرهقة مع جيرانه ، وكان أول ما بدأ به حكمه أن قتل حبيب وزير أبيه ، ثم هاجم أمانة قرمونة وكان أميرها من البربر فنزاعها عام ١٠٤٢ م لأن المنجمين أنبأوه أن سقوط أسرته وزوال نعمتها إنما يكون على يد قوم غرباء عن الأندلس ، فاصبح لا يهنا له عيش طملا كلن للبربر في الأندلس ملوك ودول ، وتمكن المعتضد من هزيمة محمد أمير قرمونة وإيقاعه في كمين أدى إلى قتله عام ١٠٤٣ م ولكن الحرب استمرت مستعرة بين المعتضد وبين اسحق بن محمد . ومد المعتضد حدود مملكة اشبيلية غربا فانتزع امانة ابن طيفور ثم هاجم امانة نبيلا العربيه فاضطر أميرها أن يلبأ إلى المظفر أمير بطليوس (وهو من البربر) فكان المظفر حلفا من محمد بن حمود خليفة مالقة ومحمد خليفة الجزيرة الخضراء ، وبادس أمير غرناطة وعبد الواحد بن جهور الذي خلف أباه في ولاية جمهورية قرطبة ١٠٤٣ م ، واستمرت الحرب سجالا ، وأخيرا دارت الدائرة على الحلفاء قرب قرمونة ، وقتل أمير قرمونة وانهكت قوى بطليوس وعجزا القهر والهوس ، وتفرق عن المظفر أميرها كل حلفائه ، وأخيرا توسط عبد الواحد بن جهور في الصلح ، ووفق إلى عقد معاهدة بين الطرفين عام ١٠٥١ م ، وبعد عقد الصلح هاجم المعتضد امانة نبيلا واستولى عليها ، وفر أميرها إلى قرطبة واستولى على امارات أخرى غيرها ثم رأى أن ملكه قد امتد غربا كما كان يشتهي ، فاتجه بجيشه جنوبا لمناوشة امارات البربر التي كانت خاضعة له خضوعا اسميا تدعو للخليفة المزعوم هشام الثاني على منابرهما وتؤدي له الجزية ، ولكن المعتضد لم يكتف بهذه السلطة الوهمية بل أراد استئصال شأفة البربر ، ودير لذلك خطة جريئة ماكرة ، فزار أمارتي روندا ومارونا ، وكشف هنالك كراهية العرب للبربر ،

فاتفق مع كثير من زعماء العرب وبعض الخونة من القواد البربر على الثورة ، وأمدّهم بالأموال وشجّعهم ثم أجزل الصلات لمضيفه وعاد إلى أشبيلية عام ١٠٥٣ م وبعد ذلك بستة أشهر دعا أمراء وكبراء روندا ومارونا إلى ضيافته في أشبيلية ثم أدخلهم الحمام وأمر البنائين بأحكام رتاج الباب وبناء الأحجار في فتحته ، ثم سلط عليهم الحرارة فاختنقوا وماتوا وكان عددهم يناهز السنين أميرا ، ثم أرسل جيوشه لاحتلال أماراتهم ، فكانت مهمتها سهلة ممهدة إذ عاونها العرب من السكان ، ومن رشاهم المعتضد من الخونة ، وهكذا استطاع المعتضد أن يضم إليه أمارات البربر الجنوبية ويحصنها تحصينا منيعا

حقد باديس :

استاء ملك غرناطة لقتل الأمراء البربر بهذه الطريقة الوحشية ، وكاد ينفجر من الغيظ ، خصوصا لما بلغه ما كان من ثورة العرب في إمارة روندا ومارونا ضد البربر وذبحهم إياهم عن آخرهم ، إذ خشى أن يثور عليه العرب من رعاياه أيضا اقتداءً ببني جلدتهم ، فصمم على استئصال شأفة العرب في غرناطة ولكن وزيره صموئيل اليهودي نهاه عن ذلك ، وأفسد تدبيره لما توقعه من وخامة العاقبة ، فعزم على مهاجمة أشبيلية وقاد الجيش بنفسه ، ولكنه صد عنها مهزوما لأن جيش أشبيلية قاتل بحماس لا يوصف ، واعتبر حرب غرناطة جهادا في سبيل الله لأن وزير الدولة كان يهوديا

تشجع المعتضد بعد هذا الانتصار ، فهاجم الجزيرة الخضراء لأن أميرها القاسم الحمودي كان من أضعف أمراء البربر ، واستولى عليها وخرج أميرها لاجئا إلى قرطبة عام ١٠٥٨ م ولما عاد المعتضد إلى أشبيلية وضع حدا لمهزلة خلافة هشام الثاني ، وأعلن أمم وزراء الدولة ووجوهها أن الخليفة قد مات ١٠٥٩ م وأذاع نبأ وفاته في طول

البلاد وعرضها ، ودعا الأندلس إلى اختيار خليفة جديد ولما لم يلتفت لدعوته أحد أدعى أن الخليفة المزعوم قد أوصى له بالخلافة (قبل وفاته) وأنه أصبح أمير الأندلس كلها وعزم على الاستيلاء على قرطبة عاصمة الأندلس ، ولكن صدمه القدر صدمة قاسية أفقدته صوابه

ذلك أنه أرسل ابنه الأمير اسماعيل على رأس جيش صغير للاستيلاء على اطلال ضاحية الزاهرة بينما كان هو يخرب ضواحي قرطبة ، فتباطأ اسماعيل ثم طمحت نفسه للحصول على إمارة الجزيرة الخضراء والاستقلال بها ، فعاد مسرعاً إلى أشبيلية واقتحم القلعة وحمل أموال أبيه وعدداً من نساء القصر ومعهم أمه ، ثم أسرع بالذهاب إلى الجزيرة الخضراء ، ولكن رسل أبيه كانوا قد أخبروا حكام المدن والحصون أن يكونوا على حذر واستعداد فلم تفلح مغامرة اسماعيل ، ووقع أسيراً في يد أبيه ، وذبحه أبوه بيده انتقاماً منه ، وصب جام سخطه على كل أصدقائه وخدمه ونسائه فنكل بهم أشنع تنكيل . وكان لعظم الصدمة وقع شديد في نفس المعتضد حتى أنه نسي مطامعه في قرطبة وظل جرح قلبه دامياً لا يندمل

استيلاؤه على مالقه :

كان عرب مالقه يشنون من جور أميرهم باديس فاستجاروا بالمعتضد لأنه عربي مثلهم ، وأسرع المعتضد إلى مجدهم ، وفي اليوم المعين ثار عرب مالقه وما حولها من الحصون ، واجتاز جيش المعتضد الحدود بقيادة ابنه المعتمد فسقطت الحصون في يده سراها ، وحصر البربر بين نارين قتل معظمهم وفر

الباقون ، ولم يمض أسبوع حتى كانت امارة مالقه في حوزة المعتضد ماعدا العاصمة
نفسها لمنهاة حصونها ، واستطاعة الزوج من حاميتها في الدفاع عنها

وأشار الثوار العرب على حليفهم المعتمد بن المعتضد أن لا يأمن البربر من
جنده ، وأن يكون حذرا دائم اليقظة ، وأن يشدد الحصار على حصون مالقه
ولكنه اغتر بما ناله من فوز وأهمل نصيحتهم وانصرف إلى لهوه وشرابه ، فكانت
النتيجة أن أسرع باديس بمهاجمة أعدائه بغتة وهزمهم شر هزيمة وطردهم من
حول العاصمة ، واسترد بلاد الامارة كلها وفر المعتمد إلى روندا ، وهكذا فقد
المعتضد من جراء اهمال ابنه جيشا وامارة بأسرها ، وانتقم باديس من الثوار
العرب ، فنشر الفزع والهلع ووضع السيف في رقابهم والنار في ديارهم . وفي تلك
الثناء توفي صموئيل وخلفه في الوزارة ابنه يوسف ولكن البربر ثارت ثائرتهم
أخيرا لكبريائه وصلفه فهاجموه وقتلوه وقتلوا معه أربعة آلاف من يهود غرناطة
في ديسمبر عام ١٠٦٦ م

وفاة المعتضد :

لم تكن الحال في بقية أنحاء الأندلس الاسلامية على مختلف أماراتها
وأقسامها بأقل اضطرابا وتطاحنا وانقسامام رأيناه في امارات جنوب الأندلس
فالككل كان يتطاحن ويتناحر على اقتطاع شطار من ملك الخلافة الأموية . فلا
غرامة وقد عمت الفوضى بلاد المسلمين أن يظهر بين مسيحي الشمال من يجمع
شملهم ويؤلفهم على طرد المسلمين وانتزاع املاكم جزءا بعد جزء

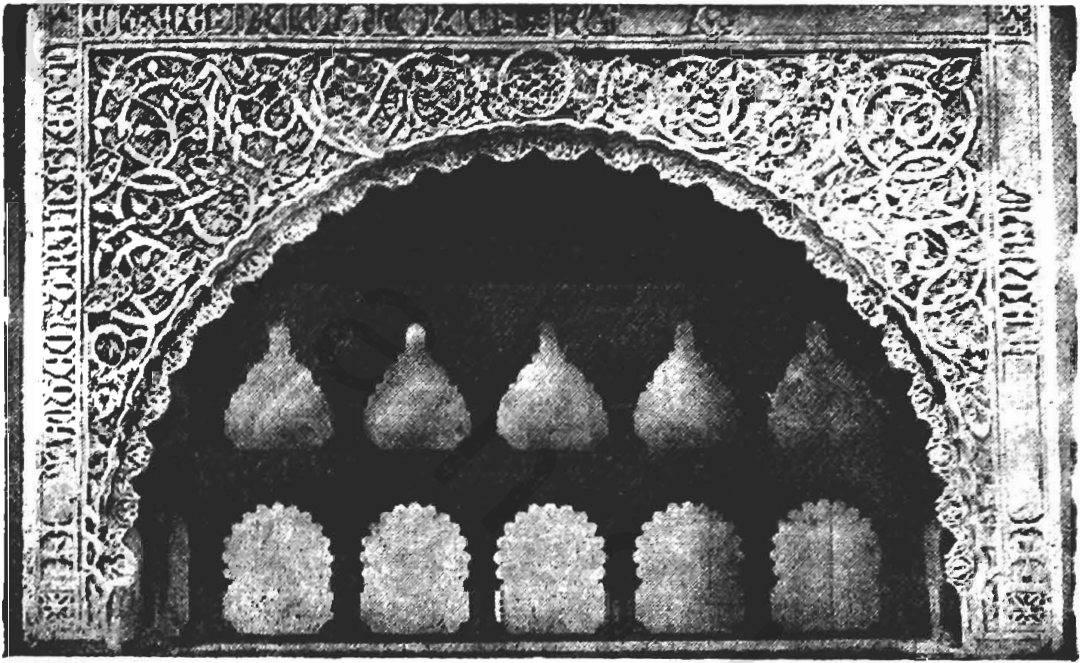
والظاهر أن ملوك الامارات المسيحية الشمالية سرت فيهم عدوى الانقسام
أيضا أول الامر فظلموا في تطاحن وشقاق زهاء نصف قرن ، ولكنهم برثوا من

عليهم بعد ذلك وتمخضت الحروب الأهلية بينهم عن ظهور بطل قومي هو
فرناندو الأول ملك قشتالة وليون ، الذي وحد كلمتهم عام ١٠٥٥ م وقاد جموعهم ضد
أعدائهم المسلمين المنشقين على أنفسهم ، وبسم الحظ أخيرا للمسيحيين وحانت
ساعة زحزحتهم المسلمين عن موقفهم ، وكان جيش فرناندو يقاتل مدفوعا بنزعة
دينية وحساس وطني ، فانزع من المظفر أمير بطليوس معظم امارته ، ومن بينها
العاصمة عام ١٠٥٧ م ثم دخل امانة سرقسطة ، وانتزع الحصون الواقعة جنوب نهر
دورو ، وأغار على إمارة المأمون في طليطلة ، فأسرع المأمون بتقديم الطاعة والهدايا
القيمة وكانت قدراً وفيراً من الذهب والفضة والجواهر ، وتعهد بدفع جزية سنوية
وكان هذا بدأ الانقلاب إذ أصبح المسلمون هم الذين يدفعون الجزية للمسيحيين
ثم أتى دور المعتضد ، ففي ١٠٦٣ م احرق فرناندو القرى المجاورة لاشبيلية ،
ووع ان المعتضد كان اقوى ملوك الأندلس المعروفين بملوك الطوائف ، الا انه
اضطر مكرها الى ما اضطر اليه المأمون ملك طليطلة ، فزار معسكر فرناندو وقدم
الهدايا ورجاه ان يرجع عن بلاده ، بعد أن تعهد بدفع الجزية وتسليم رقات
القديسة يوسفا احد شهداء العصر الروماني . وهكذا ظهر ضعف المسلمين
وهوانهم على المسيحيين ، وفي ١٠٦٤ م نكب المسلمون بكاثرة عظمى إذ سقطت
كومبرا في يد فرناندو الذي نفى المسلمين من أهلها ثم حاصر بلنسية وكان يحكمها
الأمير عبد الملك بن عبد العزيز ، ولما رأى المسيحيون مناعة حصونها تظاهروا
بالتفكير عنها فخرج اهل بلنسية لمطاردتهم ، فانقض عليهم المسيحيون فيما بين
بلنسية ومرسيه . وقتلوا معظم المسلمين . وفر عبد الملك هاربا ولم يكف المسلمون
ما يلقونه من ويل على ايدي مسيحي اسبانيا ، بل فوجئوا بغارة النورمنديين
على شمال شرق الأندلس بقيادة جويليوم دي متروى ، واستيلاهم على بلنسية ،

ثم على حصن المسلمين بين لاردة وسرقسطة واسمه بارباستروحيث قتلوا حاميته ، بعد ان تعهدوا باحترام حياة افرادها كما قتلوا المسلمين ، واقتسموا فيما بينهم بيوت المسلمين بما فيها من نساء وأطفال ومال ومتاع ، وارتكبوا من الفظائع ما تقشعر من هوله الأبدان ، ثم ارتحلوا عائدين إلى بلادهم مثقلين بالاسلاب ، فاستولى المقتدر امير سرقسطه على ذلك الحصن مرة اخرى واسترد عبد الملك بلنسية ، ولم يكد يستقر فيها حتى عاد اليها فرناند ، ولما اشتد عليه المرض فيها تركها عائدا إلى بلاد ، فضعها المأمون امير طليطلة إلى ملكه ، واتفق الموت المسلمين من ألد اعدائهم فرناند حيث توفي عام ١٠٦٥ م ومن بعده بوقت قصير توفي المعتضد عام ١٠٠٩ م فخلفه ابنه المعتمد

المعتمد :

ولد المعتمد عام ١٠٤٠ م ودر به أبوه على ادارة شؤون الدولة ، وفي حياة أبيه توطدت الصداقة بينه وبين رفيق صباه الشاعر المجيد ابن عمار ، فادخله في خدمته ، ولما تولى الملك بعد أبيه عام ١٠٦٩ اتخذ وزيراه بعد أن كان مسترفدا ، قصاراة التنكسب بالشعر لا يخص بمدحه الملوك دون غيرهم ، بل لا يبالي ممن أخذ ولا من استعطف من ملك أو سوقة . وأصبح المعتمد يعد ابن عمار لكل أمر جليل ويؤمله لكل رتبة عالية ، فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى البرمكى مع الرشيد وتزوج المعتمد من بين نساءه جارية اسمها اعتماد المعروفة بالرميحية ، وكانت آية عصرها في الذكاء واللياقة والجمال والفصاحة حتى لتعادل ولادة بنت المستكفي ، ولما كان المعتمد ووزيرة ابن عمار من فحول الادباء ومجيدى القريض فقد اعتزت بهما دولة الادب والشعر .



خشب منجور من طليطلة

obeykandi.com

وأصبحت أشبيلية كعبة الشعراء ومنشجع الأدباء من كافة بلاد الأندلس ، وكان المعتمد يحسن صلة الشعراء المجيدين ويحجزهم ، ونحن يحسن تقدير مواهب الرجال حتى ولو كانوا لصوعها ، تدل على ذلك قصته مع كبير المخصوص الصغير الرمادى الذى عفا عنه المعتمد ، وعينه رئيسا لشرطته ، وله شعر كثير يحكى الماء سلاسة والصخر ملاسة ، وأولع المعتمد بالشراب والندمان والفيد الحصان ، ومن أشهر جواريه قمر وارماندا ومرغريت وله مقاطيع حسان كان يرتجلها فى مجالس أنسه وشعره الذى قاله أيام محنته يفجر الصم ويزعزع الشم ، وكان لا يتوزر وزيرا إلا أن يكون أديبا شاعرا ، فاجتمع له من الشعراء ما لم يجتمع لأحد قبله ومن جملة وزرائه الوزير الاجل ذو الرياستين أبو الوليد أحمد بن زيدون أحد شعراء الأندلس المجيدين ، وفحولها المبرزين صاحب ولادة بنت المستكفى

ولم يصرف الادب والشعر المعتمد عن تدبير ملكه وحسن ادارة شئون بلاده وقد ساعدته الظروف ففاز بضم قرطبة إلى مملكته ، وحقق ما عجز أبوه وجده عن تحقيقه وادراكه ، ذلك ان ابن جمهور رئيس الجمهورية كان قد تنازل عن الرياسة لولديه ١٠٦٤ م وقلد عبد الرحمن الشئون المالية والادارية ، وعبد الملك قيادة الجند ، وسار كل شئ على أتم ما يرام بفضل حسن سياسة الوزير ابن السقا ولكن المعتمد أوغر صدر عبد الملك على الوزير ابن السقا الحاجة فى نفسه فنسكب عبد الملك وزيره المخلص وقتله ، فاضطرب الحال فى قرطبة بعد قتله ، واستقال كل ضباط الجيش وعدد كبير من الجند ، ولم يحفل عبد الملك بضمهم فعمل على إلغاء النظام الجمهورى ، وفى هذا الوقت حاصر قرطبة المأمون أمير طليطلة فطلب عبد الملك معونة المعتمد وأمدّه هذا بجيش قوى فاضطر جيش طليطلة الى الانسحاب ، ولكن قائد جيش أشبيلية كان قد اتفق مع وجوه مدينة قرطبة

وفق تعليمات سيده على ضمها إلى ملك المعتمد . فبعد انقضاء سبعة أيام على انسحاب جيش طليطلة تاهب عبد الملك لوداع جند أشبيلية الذين كانوا قد أزمعوا الرحيل ، فلم يكد يفادر قصره حتى وجد نفسه محاطا بجماهير الشعب وقوات المعتمد ، وقبض عليه وعلى والده وأسرته واعترفت قرطبة بالمعتمد أميرا عليها وولى عليها ابنه من الرميكية الأمير عباد

ولكن المأمون لم يسلم بالهزيمة ، وعاود الكرة للاستيلاء على قرطبة ومعه حليفه الفونس السادس ، فصدهما الأمير عباد ، ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى طمع ابن عكاشة أحد قواد المعتمد في الاستيلاء على قرطبة ، وكان ابن عكاشة حاكما لحصن من حصون المعتمد فتآمر مع غوغاء قرطبة الذين ساءم ما كان يعاملهم به محمد ابن مارتين قائد حرس الأمير عباد من معاملة جائره .

وفي ليلة عاصفة من يناير عام ١٠٧٥م ، دخل ابن عكاشة المدينة مع جمع من رجاله ، وقصدوا قصر عباس فوجدوه بلا حرس فاقنحموه وقتلوا الأمير الشاب ، وألقوا بجثته في الطريق ، ثم انجهوا إلى قصر محمد بن مارتين وقتلوه أيضا ، ثم جمع ابن عكاشة أهل قرطبة في المسجد الجامع وأخذ عليهم البيعة للمأمون أمير طليطلة ودخل المأمون قرطبة بعد بضعة أيام ، فاعدق العطاء والأنعم على ابن عكاشة ولكن هذا دس للمأمون السم فمات سنة ١٠٧٥م ذلك لأن ابن عكاشة كان قد بلغه أن المأمون يبيت النية على قتله والتخلص منه . وكان المعتمد إذا ذاك حزينا على فقد قرطبة وقتل ولده عباد ، وظل ثلاثة أعوام يحاول استرجاعها حتى وفق إلى ذلك أخيرا في ١٠٧٨م حين هاجمها وانتزعها من ابن عكاشة الذي فر منها وقت أن

دخلها المعتمد ، فاتبه بكوكبة من الفرسان فقبضوا عليه واحضروه إلى المعتمد ، وهذا أمر بقتله وصلبه بجوار جثة كلب ، ثم فتح المعتمد قسما من إمارة طليطلة فيما

بين الوادى الكبير والوادى البانع

المعتمد والفونس السادس :

كان المعتمد ملكا قويا من ملوك الأندلس ، ولكنه كان مثلهم يدفع الجزية للمسيحيين وكان الملك الفونس السادس لا يكتفى بالجزية بل يهدد بانتزاع بلاد الأمراء العرب وحصونهم ، وغزا مرة أشبيلية فى جيش عرمرم غير مكثف بأخذ الجزية ، فساد الهلع والذعر لما رأى أهل أشبيلية أن لا قبل لهم بمجنوده ، ولكن الوزير ابن عمار لم يداخله اليأس بل عمد إلى مكروه ودهائه لدفع عدو بلاده ، وذهب إلى معسكر الفونس ومعه شطرنج بديع الصنع يود كل ملك أن يقتنيه إذ كانت قطعة من العاج والأبنوس المطعم بالذهب ، فلما أراه للملك الفونس عرض هذا عليه أن يلعب معه ، فاشتراط ابن عمار أنه اذا غلب أصبح الشطرنج للملك ، أما اذا غلب فانه سيسأل شيئا واحدا ، ولم يقبل الملك أول الأمر شرطا غامضا كهذا ، ولكن رجال حاشيته هونوا عليه الامر ، وقالوا ماذا عساه أن يطلب ، وهل يعجز الملك عن طلب ما ، وكان ابن عمار قد اتفق معهم سرا على تحقيق بغيته ، ووعدهم بمبلغ عظيم من المال . فلما قبل الفونس شرط ابن عمار ولعب معه وغلب فى اللعب قال لابن عمار الآن ماذا تطلب ، قال أن ترجع من هنا الى بلادك ، فاستشاط الملك غضبا ، وعزم أول الامر على نقض ذلك الشرط ، ولكن رجال حاشيته قالوا ان الغدر لا يليق بالملك ، فقبل الفونس أن يعود الى بلاده ولكنه ضاعف الجزية على أشبيلية ، وهكذا أنقذ ابن عمار بلاده من

خطر داهم

سقوط ابن عمار :

أضاف ابن عمار الى مننه وأياديه على مملكة أشبيلية منة جديدة أخرى هي ضم امارة مرسية اليها ، وكان حاكما وأميرها أبو عبد الرحمن بن طاهر من عرب قيس ، ولما دخلها ظافرا ظهر بمظهر الملوك مما أوغر صدر المعتمد ، وانتهز حساده الفرصة وعلى رأسهم ابن زيدون فوقعوا بينهما حتى تنكر كل منهما لصاحبه ، وسولت لابن عمار نفسه أن يستقل بمرسية ، فقاومه ابن رشيق احد قواد جنده ، واحاط بقصره مما اضطره الى الهرب لاجئا الى الملك الفونس السادس ، ولكن هذا ابى مساعدته ، فلجأ الى المقتدر أمير سرقسطة من بني هود ، ودخل في خدمة ابنه المؤتمن من بعده ، ولم تزل البلاد تتقاذفه الى ان وقع اسيرا في ايدي بني سهيل فباعوه للمعتمد ، وكانت نهايته السجن ثم القتل . والهي حديث ابن عمار اشبيلية عن ان تعد العدة لكارثة تهدد باجتياحها والقضاء عليها